الوعظ القصصى (١)

تلخيص الأستاذ سيد ابرهيم

قال لى صاحبى و هو يحاورنى

«لقد نكبتنا و زارة الأوقاف حين احتكمت علينا أن نؤلف خطباً و نسجلها فى الدفاتر!»

قلت : «لقد أسدت إليكم معروفاً أى معروف ! »

قال : «أنى مقدور لى أن أعظ و أن أخطب»

قلت: «و لم لا؟»

قال : — «إنى لأعجز عن تسجيع جملتين اثنتين فى يوم واحد؟»

قلت : — «و ما شأن هذا بالخطابة؟»

قال : — «و كيف تكون خطابة بلا سجع؟»

قلت : — «بل كيف يكون سجع و خطابة؟»

قال : — «أمرك عجيب!»

قلت: — «أمرك أعجب»

قال : — «دع المزاح جانباً و خذ فى الجد»

قلت : — « انى لأمزح ، و هل تسمى الصدق مزاحاً؟ إنك تتصور الخطابة تصورا فاسدا خاطئاً ، و هذا التصور و حده هو علة عجزك عن القيام بها، إن الوعظ أيسر مما تظن بكثير

إن كل أمر بالمعروف و كل نهى عن المنكر هو وعظ له قيمته و خطره

فاذا سرت فى الطريق و رأيت حادثاً من الحوادث — خيرا كان أو شرا — فقصصته على مستمعيك مثنياً على جانب الخير منددا بالجانب المرذول حاثا الناس على الاقتداء بالأول محذرا إياهم من الوقوع فى الثانى. فقد أحسنت و أجدت و كنت الخطيب المفوه و الواعظ المرشد الأمين

---

(١) خلاصة المحاضرة التى ألقاها الاستاذ كامل كيلانى فيها بجمعية مكارم الاخلاق الاسلامية

وبهذا تكون قد قدمت للناس أمثلة يقتدون بها وأمثلة يحذرون الوقوع فيها ، ووعظتهم بما حدث لسواهم من خير وشر

« والسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه »

قال : —

« ما كنت أحسب الوعظ بهذه السهولة »

قلت — :

« إن سوءفهم كثير من الخطباء معنى الوعظ هو علة تخبطهم فيه وعجزهم عن القيام به »

***

قالوا : إن مربية اولاد لويس الرابع عشر طلبت إلى أحدهم — وكان صغير السن — أن يكتب كتاباً إلى أبيه — وكان بعيداً عنه

فقال لها مدهوشاً — :

أنى قدرتى أنا أن أكتب كتاباً

فقالت له — :

هب أباك حضر فماذا أنت قائل له ؟

قال — :

أقول له لقد أوحشتنا واشتقنا لرؤيتك !

قالت — :

فاكتب له هذا .

ثم قالت له — :

قل له إن البيت يحترق !

فقال لها :

هذا كذب !

قالت — :

« قل له إذن إن الخادم تنظف غرفة الاستقبال »

قال : —

« وهذا خبر تافه . »

قالت : —

لقد عرفت الآن كيف تكتب الكتاب ، فليس يكلفك ذلك اكثر من ان تكتب ماتشعر به مبتعدا عن الكذب وعن الحقائق التافهة !

و هذه أيها السادة هى وظيفة الخطيب تماما

***

وفى إحدى روايات «موليير» نرى احد المولعين بالدرس — على كبر — يشرح له معلمه النظم والنثر، فيقول له:—

النظم هو الكلام الموزون المقفى

فيسأله : و ما النثر ؟ فيقول له — :

هو ما تتكلمه الآن

فيقول : « وا عجباً ،إذن فأنا اتكلم النثر اربعين سنة وانا لا ادرى! »

***

ولعل أكثرهم سيدهش أيضاً حين أقول له إنك كثيراً ما تكون خطيباً — عن غير قصد منك — وانك تكون واعظاً بليغاً كلما قصصت على اخوانك أو أهلك أو طلبتك قصة بليغة ذات مغزى حكيم !

ولعل أيسر وأبلغ طريقة يتبعها الواعظ فى بيته وطريقه وعلى منبره ، هى ضرب الأمثال و رواية القصص .

ولقد فرغ رجال التربية من التدليل على أهمية الأمثال والقصص ، وقد سبقهم القرآن الكريم الى ذلك،فقال:

« وتلك الأمثال نضربها للناس »

وقال « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »

ولقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصى حداً عجيبا

أذكر لكم ان مدرساً فاضلا من مدرسى العربية كان يدرس لنا — فى مدرسة أم عباس الابتدائية — وكانت نتائجه أبهر النتائج وتلاميذه أقوى التلاميذ ، وكان السر فى ذلك هو اسرافه فى حب القصص ، وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصى حداً مدهشاً جعله يشرح لنا فى قواعد اللغة ، وأثر كان وأخواتها وأثر إن وأخواتها بأسلوب قصصى جذاب يحبب فى النحو أزهد الناس فى النحو .

***

وكثيراً ما لجأ أبى — فى تربيتى — الى ضرب الامثلة والقصص

أذكر لكم أن بعض أشقياء الصبية أغرانى بتسلق الترام وأنا صغير ، فرآنى أبى وانا افعل ذلك ، ولم اره

فلما عاد الى المنزل قال لى — :

لقد حدث اليوم ياولدى امر عجيب ، فقد هوى ولد شقى تحت عجلات الترام فقطعته شطرين ، وظل الناس يلعنونه و يلعنون أهله :

« وهنا ذكرتك ياولدى فحمدت الله على حسن أدبك وبعدك عن هذه الدنايا »

اقول لحضراتكم ان الأرض كادت تغوص بى وكان هذا آخر عهدى بهذا العمل الممقوت .

و فى ذات يوم قلت له — وكنت طفلا — :

انى لأخشى العفاريت والحشرات المؤذية حين اصعد سلم البيت فى ظلام الليل .

فقال لى — :

من الذى يحرسك وانت نائم

قلت — : هو الله

قال — : اتظن ان من يحرسك نائماً لا يحرسك وانت يقظان ؟

فكان ذلك آخر عهدى بالخوف ايها السادة

ولقد قرأ لى أبى كثيراً من القصص فى فجر حياتى ، لا أزال مديناً لها — الى الآن — بما يظنه فى بعض من يحسنون الظن بى من خيال وأدب

ليست وظيفة الواعظ منحصرة فى أن يقول « اتقوا الله واخشوا عذابه واحذروا ناره فى كل أسبوع بعبارات مختلفة وأن يقول :

«عباد الله »

أوصيكم وايای بطاعته ، واحذركم وايای من عصيانه ومخالفة أمره إلى آخر هذه الكليشيهات والعبارات المحفوظة حفظاً والجمل المرصوفة رصفا .

ولكن وظيفته تنحصر فى أن يحسن التعبير عما يشعر به من خوالج وعواطف صادقة . ولو كنت خطيباً فى مسجد ، لما صعب على أن أهتدى إلى موضوع صالح — كل يوم — فضلا عن كل أسبوع

أمامى الحياة اليومية أقتبس منها ألف مثل مما أراه فى الطرقات وغيرها .

أمامى التاريخ الحافل بالعظات والعبر والمثل العليا

موقعة أحد

خذ مثلا على ذلك موقعة أحد

فهى وحدها تصلح موضوعا لعدة خطب

(١) عاقبة المخالفة

كان النصر محققاً للمسلمين فى بدئها

فلما خالفوا أمر النبى (ص) وانتقلوا من مواضعهم كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً فيهم حمزة عم النبى (ص)

واستطاع العدو أن يخلص إلى النبى (ص) فيرميه بالحجارة

قالوا — : ووقع لشقه

فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفتاه ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون الخ

اليس هذا موضوعا جليلا يبين لنا عاقبة المخالفة !

(٢) وفاء الصحابة

وفى هذه الموقعة يتجلى لنا مثل عال من امثلة الاخلاص والتفانى فى الوفاء . إذ يقبل الصحابة على النبى مستبسلين يفدونه بأرواحهم

يأخذه على يده

ويرفعه طلحة بن عبيد الله

ويحيط به جماعة من الأنصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم .

وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة فلا تقل عن شجاعة جان دارك التى لا يكاد يخلو من ذكرها كتاب ، والتى ملأوا الدنيا اعجابا بها

تتحاز أم أم نسيبه بنت كعب إلى النبي (ص) وتتفانى فى الذود عنه

— وكانت تسقى الماء فى أول النهار فلما رأت هزيمة المسلمين ، أسرعت إلى النبي تفديه بنفسها ، ضاربة بسيفها مرة ورامية عن قوسها أخرى حتى أثخنتها الجروح .

أتريدون أمثلة أخرى من هذه الموقعة؟ لو شئتم لما وفت الليلة كلها اذا قصرناها على هذه الموقعة وحدها ، فلنجتزى بذلك ففيه الكفاية . أتريدون أمثلة على فضل الصبر

فضل الصبر

صبر الصحابة

كان (النبي) يذكر يوما ما لقى من قومه من الجهد والشدة ، قال .

لقد مكثت أياما وصاحبي هذا (يشير الى ابو بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام إلا البريز (ثمر الأراك) فى شعب الجبال .

***

وكان عتبة بن غزوان يقول — اذا ذكر البلاء والشدة التى كانوا عليها بمكة — لقد مكثنا زمانا ، مالنا من طعام الا ورق البشام ، أكلناه حتى تقرحت أشداقنا ، ولقد وجدت يوما تمرة ، فجعلتها بينى وبين سعد ، وما منا اليوم الا وهو مير على كورة

وكانوا يقولون فى من وجد تمرة تقسمها بينه وبين صاحبه : ، إن أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه ، يلوكها طول يومه وليلته من عدم القوت ،

قال (ص) ، لقد رعيت غنيمات أهل مكة لهم بالقراريط ،

***

أتريدون امثلة على الاعتداد بالنفس !

جاء (ص) يوما ليدخل الكعبة
فدفعه عثمان بن طلحة العبدرى ، — :
فقال — : « لاتفعل ياعثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدى أضعه حيث شئت! »
فقال — : « لقد ذلت قريش وقلت
قال — : « بل كثرت وعزت »
وانظروا الى حواره (ص) مع قريش حين قالت له تفاخره — :

***

« أتباعك من هؤلاء الموالى « كبلال وعمار وصهيب » خير من قصى بن كلاب
« وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس »
فقال — : « نعم »
والله لئن كانوا قليلا ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن .
حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ويقتدى فيقال — :
« هذا قول فلان »
« وذكر فلان »
فلا تفاخرونى بآبائكم الذين موتوا فى الجاهلية .
فلما يد هده الجعل بمنخره خير من آبائكم الذين موتوا فيها .
فاتبعونى أجعلكم أنسابا
والذى نفسى بيده ، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ! »
فقال له عمه أبو طالب — :
« أبق على وعلى نفسك ! »
فظن النبى أنه خاذله فقال :
« ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته » ثم استعبر باكيا ، ثم قام .
فلما ولى ناداه
أقبل يا ابن أخى
فأقبل

فقال : « اذهب وقل ماشئت ، فوالله لاأسلمتك لسوء أبداً ! »

***

أرأيتم خيرا من هذه الامثلة يسوقها الخطيب يعظ بها قومه و يضرب لهم بها أعلى الامثال ؟

***

زعموا أنه كان أسد فى أجمة ، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه . فأصاب الأسد جرب ، وضعف شديد وجهد ، فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : « ما بالك ياسيد السباع ، قد تغيرت أحوالك؟ » قال : « هذا الجرب الذى قد أجهدنى وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه » قال ابن آوى « ما أيسر هذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً لقصار يحمل عليه ثيابه ، وأنا آتيك به » ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له : « مالى أراك مهزولا ؟ » قال : ما يطعمنى صاحبى شيئاً فقال له : « كيف ترضى المقام معه على هذا ؟ » قال فما لى حيلة فى الهرب منه كلما أتوجه إلى جهة أضر بى انسان فكدنى وأجاعنى قال ابن آوى : فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لايمر به انسان ، خصيب المرعى ، فيه قطيع من الحمر لم تر عين مثلها حسناً وسمناً ، قال الحمار : وما يحبسنا عنها ؟ فانطلق بابن آوى نحو الأسد وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمار منه فافلت هلعا على وجهه ، فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار قال له : « أعجزت ياسيد السباع إلى هذه الغاية؟ » فقال له إن جئتنى به مرة أخرى . فلن ينجو منى أبدا . فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له : ما الذى جرى عليك ؟ إن أحد الحمر رآك غريباً فخرج يتلقاك مرحباً بك ولو ثبت له لآنسك ومضى بك إلى أصحابه؟ فلما سمع الحمار كلام ابن آوى — ولم يكن رأى أسداً قط — صدقه وأخذ طريقه إلى الأسد فسبقه ابن آوى إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له استعد له فقد خدعته لك فلا يدركنك الضعف فى هذه النوبة فانه إن أفلت فلن يعود معى أبداً . فجاش جأش الأسد لتحريض ابن آوى وخرج إلى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها ثم قال

« قد ذكر الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور ، فاحتفظ به حتى أعود

فأكل قلبه وأذنيه وأترك ما سوى ذلك لك قوتا فلما ذهب الاسد ليغتسل ، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطير الأسد منه فلا يأكل منه شيئاً

ثم إن الاسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى —:

أين قلبه وأذناه ؟ فقال له — :

ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به وأذنان يسمع بهما ، لم يرجع اليك بعدما نجا من الهلكة (١)

* * *

أليست هذه مصداق الحديث لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين »

* * *

ثم ذكر المحاضر امثلة أخرى كثيرة ثم ختم محاضرته بقوله :

فاذا أردت مثل العقوق ومثل الوفاء فأمامك حكاية « أبي صير وابي قير » وهي في ألف ليلة.

واذا أردت مثل القضاء والقدر ، فأمامك حكاية الملك عجيب وهي فيها أيضا

واذا أردت مثلا على أن لكل مقام مقالا فاقرأ حكاية العم « عمارة » وهي مشهورة. لا حاجة بنا لذكرها

وجماع القول أن القصص وضرب الأمثلة تحببان إلى نفوس الكبار والصغار معا وهما من خير الوسائل التي يلجأ اليها الخطيب لتقرير فكرة أو مبدأ في أذهان سامعيه .

سيد ابراهيم

قصص للأطفال

بقلم

كامل كيلاني

أسلوب جديد في التربية — به أكثر من ٣٥ صورة مشوقة ثمنه ٣ قروش تطلب من جميع المكاتب المشهورة ومن عباس افندي عبد الرحمن بشارع خيرت بالقاهرة

---

(١) من كليلة ودمنة